بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ٢٦ ابريل ٢٠٠٢

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

ثورة البركان!

اريد أن أروى لك قصتى.. أنا رجل فى الخمسين من عمرى، قبل سنوات عديدة كنت أشعر بالحب تجاه فتاة جميلة من معارفنا وأخطط لأن أتقدم لطلب يدها وانتظر تحسن أحوالى المادية لكى أتقدم إليها.. وخلال تلك الحالة أن أستشف مشاعرها تجاهى فلم أستطع.. إذ لم تتجاوز الصلة بيننا عبارات التحية والمجاملة العادية فى المناسبات. ثم رجع شقيقى الذى يكبرنى بأربع سنوات فى إجازة من عمله فى إحدى الدول العربية ورأى هذه الفتاة وأعجب بها وصارحنى برغبته فى الزواج منها، فكتمت مشاعرى تجاهها عنه وعن الجميع وتقدم هو لها ورحبت به هى واسرتها وتزوجها ورجع إلى عمله ولحقت هى به بعد قليل. ثم لم تلبث أن حملت وأنجبت له أول أبنائه.

أما أنا فلقد تجاوزت الموقف وشغلت بحياتى وعملى سنوات عديدة ولم أتزوج إلا بعد أن بلغت السابعة والثلاثين من عمرى وسعدت بزوجتى ووجدت فيها كل شىء جميل ما عدا شيئاً واحداً فقط هو صوتها العالى الذى تعودت عليه منذ الشهور الأولى للزواج.. كما لاحظت كذلك نفورها الغريب من زوجة أخى هذه وعدم ارتياحها لها وغيرتها منها.. وتعجبت لذلك كثيراً ثم علمت بعد ذلك أنها عرفت . ولا أدرى كيف . بحبى السابق لها، ومنذ عامين توفى أخى الأكبر فجأة ورحل عن الحياة . يرحمه الله . وترك وراءه أبناءه الثلاثة وهم فى مراحل التعليم المختلفة، فبدأت أقدم لأرملته كل شهر مساعدة مادية لتواجه بها نفقات تعليم الأبناء ومطالب الحياة الكثيرة، وأخفيت هذا الأمر عن زوجتى لكيلا تساورها الشكوك فى أرملة أخى.. لكنها عرفت بالأمر كالعادة وراحت تفتعل معى المشاكل وترفع صوتها علىّ كلما علمت أننى زرت بيت أخى لتقديم المساعدة أو السؤال عن أبنائه.

واستمر الحال على هذا النحو سنة وبضعة أشهر بعد رحيل أخى ، وفى الصيف الماضى تزوجت أرملته زواجا عرفيا على ورقة معتمدة من أحد المحامين واتفقت معها على أن يظل زواجنا سريا فلا يعلم به سوى أبنائها فقط، وأصبحت بعد ذلك أختلس الفرص للذهاب إلى بيت أخى.. وأتعلل لزوجتى بمشاغل العمل أو زيارة بعض الأهل، وبعد عدة شهور من زواجى السرى بأرملة أخى شعرت بأن من واجبى أن أفسر لإخوتى أسباب كثرة ترددى على بيت أخى الراحل.. فصارحتهم بأننى قد تزوجت أرملته.. ولم يعترضوا على ذلك طلباً لرعاية أبناء شقيقنا ولم يتحمسوا له فى الوقت نفسه تحسبا لأثر هذا الزواج على حياتى العائلية المستقرة ونفسية زوجتى التى يعلمون جيداً أنها لن ترضى عنه.

غير أن الأحياء الجديدة مع أرملة أخى لم تثبت أن كشفت لى عن ماديتها الشديدة فلقد كنت أعينها على أمرها بقدر استطاعتى مع الحرص على ألا أخل بالتزاماتى تجاه بيتى وبناتى، لكنها بدأت تستنزفنى ماديا واشترت شقة جديدة فى إحدى الضواحى على المحارة وأرادت تشطيبها وأرهقتنى بمطالبها، وحاولت أن أبى رغباتها من غير أن أظلم أسرتى الأولى بقدر الإمكان فلوجئت بها بعد أربعة أشهر فقط من الزواج تضعنى بين خيارين لا ثالث لهما إما إعلان زواجنا رسميا وإما الطلاق، وعبثاً حاولت إقناعها بتأجيل ذلك مراعاة لظروفى العائلية فلم تقبل التأجيل وأصرت على الطلاق ولم أجد مفراً من طلاقها بالفعل. فلم تكد تمضى عدة أسابيع بعد الطلاق إلا وفوجئت بها قد تزوجت من رجل متزوج وله زوجتان أخريان سواها.. وقد سبق لى أن رأيته مرة أو مرتين ولم أشعر بأى ارتياح تجاهه.. وقد وعدها الزوج الجديد بأن يؤثث لها شقة أخرى تجمعهم ليقيموا فيها معا هو وهى وأبناؤها.. ولم يف بوعده.. وإنما أقام مع أرملة أخى وأبنائه فى شقتهم وينام على فراشه.. وبعد استقراره فى هذا البيت راح يفتش فى أوراق زوجته فعثر على ورقة زواجى السابق منها وورقة طلاقى لها، وأرسل الصورتين إلى زوجتى التى لم تكن تعلم بأمر زواجى وطلاقى فانفجرت براكينها فى وجهى وراحت هى ووالدتها تسبانني بأحط السباب وتحملت ذلك ولم أرد عليهما رعاية لبناتى.. وأصرت والدة زوجتى على أن أطلق ابنتها لكنى أكدت لها أننى لن أطلق أبداً أم بناتى..

ومنذ حدث ذلك قبل عشرة أيام ونحن فى نكد دائم.. وزوجتى تمتنع عنى وأنا أصبر عليها لكيلا أهدم بيتى واستقرار بناتى.. وهى من النوع النكدى ولا يجدى معها الحديث الودى وصوتها مرتفع ويسمعه الجيران.

فأرجو أن تكتب لها كلمة تطفئ بها لهيب ثورتها وغضبها وأن تشير علىّ بما أفعل معها من أجل بناتى.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

حين يثور البركان لا تجدى معه أى محاولة لكبحه أو السيطرة عليه.. وكل ما يفعله المحيطون به هو أن يتفادوا سقوط الحمم وقطع الصخر المنصهر وكميات الرماد البركانى الأحمر فوقهم.. ويقبعوا نطاقا حوله يمنعون الآخرين من اجتيازه حرصا على سلامتهم.. إلى أن يستنزف البركان طاقة الغضب المتأججة فى أعماقه.. ويخمد بعد حين.

وهكذا الحال مع البشر فى غمرة غضبهم الشديد لكرامتهم وحماة شعورهم بالإهانة ومرارة الغدر. فهل تستكثر على نفسك عشرة أيام من الكدر بعد طعنك لكرامة زوجتك وزواجك السرى الطائش ممن تعتبرها زوجتك غريمة لها من البداية وتشعر بالغيرة والنفور تجاهها؟

وماذا كنت تتوقع أن تفعل زوجتك غير ذلك حين تعلم أنك قد اشتهيت أرملة أخيك وسعيت للزواج سراً منها بعد شهور قليلة من رحيل زوجها عن الحياة؟ هل توقعت مثلا أن تزهو بك وتفخر بخيانتك لعهد الوفاء معها وتستقبلك بالورود والأناشيد بعد عودتك الخائبة من هذه المغامرة الفاشلة؟

دعها يا سيدى تنفس عن غضبها بعض الوقت بشرط ألا تخرج عن الحدود المرعية معك.. واصبر عليها إلى أن تخمد ثورة براكينها ولا تتعجل الأمور، فالغضب كالحزن لكل منهما فترة حضانة طبيعية لا يمكن ابتسارها وليس من الصحة النفسية وادها أو اختصارها قبل أن تستوفى مرحلتها ويتخلص الصدر من كل بخاره المكتوم.. ويستعيد العقل قدرته على التفكير الهادىء من جديد، ومن حق زوجتك عليك أن تتحمل فترة «رعاية الغضب» هذه إلى أن تستوفى غايتها.. وتهدأ نفسها وتستعيد توازنها. ومن واجبك أن تقدر لها دوافعها لهذا الغضب العارم وتصبر عليه.. فلقد طعنت كرامتها كامرأة وزوجة فى مقتل حين تطلعت لأرملة أخيك وتزوجت منها زواجا سريا يشبه النزوة أو المغامرة، وبدوافع غريزية بحتة وليس بدوافع إنسانية او عائلية كما قد يفعل أحد الفضلاء حين يبنى بأرملة أخيه لرعايتها ورعاية أبنائها من بعده بمباركة الأهل أو ضغطهم عليه، وبعلم الزوجة الأولى وعدم معارضتها لذلك. ولو لم يكن الأمر كذلك لما قبضت يدك عن مساعدة أبناء أخيك بعد خذلان أمهم لك وزواجها من غيرك كما هو الحال الآن، ففيم العجب إذن فى أن تنفجر براكين زوجتك وأم بناتك حين تعلم بهذه المغامرة الجارحة لكرامتها . لقد سوغت لنفسك أن تستزيد من المتعة بهذا الزواج السرى من أرملة أخيك وراودتك نفسك أن تحقق رغبتك القديمة فى الفوز بالمرأة التى أردتها لنفسك فى مستهل رجولتك وسبقك إليها أخوك، فلم تجد فى الحلم القديم ما كان يستحق التطلع إليه ولا الغدر بالزوجة الأولى التى لا تنكر عليها شيئا سوى صوتها المسموع من أجله وتكشفت لك الأخرى على الفور عن سيدة «عملية» تطلب المزيد ولا تقنع بلغة القلب الموهومة.. وسعت للحصول على الطلاق منك بعد ٤ أشهر فقط من الزواج لتتزوج من غيرك ولعلها رتبت للارتباط به وهى مازالت تحمل اسمك.. وحين خيرتك بين اعلان زواجك منها أو الطلاق لم تكن تستهدف فى حقيقة الأمر أن تعلن زواجك وتحيله إلى زواج رسمى بل كانت تسعى للطلاق لتأكدها من عجزك عن إعلانه لأنه زواج لم يتم فى نطاق الأسرة ولن تجرؤ على مواجهة زوجتك به..

ومن الأمانة أن يتحمل المرء تبعات اختياراته فى الحياة وأن يقبل بها راضيا أو راغما، واستشعارك مرارة الخذلان من جانب أرملة أخيك واحد من هذه التبعات، وانفجار بركان زوجتك فى وجهك ثمن عادل كذلك لما أقدمت عليه، ونحن لا ننال العفو بمجرد إبداء الرغبة فيه.. وإنما نناله بالجهد الجهيد الذى يبدأ بالاعتراف بأخطائنا والندم الصادق عليها ثم التكفير العادل عنها واسترضاء من أسأنا إليهم بطيشنا وحماقتنا.. وتعويضهم نفسيا وانسانيا عما جنيناه عليهم.

فهل فعلت شيئا من ذلك مع زوجتك لتعيد التواصل الإنسانى بينكما وتعينها على التجاوز عما حدث من جانبك حفاظا على الأسرة والأبناء من الانهيار والضياع؟